

من الضحية؟ ومن الجلاد؟...العرب والسريان وتنافر السرديات

علي سفر | الخميس 2025/06/12

جداريات كنيسة دير ما موسى تعود إلى القرنَين الحادي عشر والثاني عشر (Getty)



تتضمنها. وفي لحظة، تجد أنك مكروه كمتهّم، لا لذنب ارتكبته بحقهم، بل كونك وُلدت منتمياً إلى قومية ما، ولأنك تؤمن بأفكار ترى فيها خيراً ما، طالما أنها لا تفرض على الآخرين أن يغيّروا حيواتهم أو شخصياتهم من أجلها!

ثمة ثقافة كاملة تستند إلى حيثيات تاريخية فتنتج لهاثاً دؤوباً نحو وصم الآخر، والكارثة التي تصنعها هذه الدينامية تتجلى في أن أصحابها يُلحّون على جعلك لا تستطيع بناء العلاقة معهم إلا عبر الاستجابة لما يريدون، وهو هنا ليس الاعتراف فقط بالمظلوميات التاريخية التي عاشها أسلافهم، بل أيضاً عبر موافقتك على رؤيتهم للتاريخ وللجغرافيا، فإذا لم تعترف بذلك فأنت موصوم سلفاً بأنك تقف في صف ظالميهم.

تُصدم كسوري يوقن بأن عروبته مليئة بالنزوع نحو الإنسانية كعتبة يقف عليها كل البشر سواسية، بأن ثمة شخصاً يُصنّف نفسه من الناحية القومية بأنه سرياني، يتهم سوريين آخرين بأنهم، وكونهم عرباً، قد سرقوا سوريّته التي يرى أنها سريانية وليست عربية.

في تركيبة معقدة مثل هذه التي رست عليها أحوال قوميات وجماعات الشرق، لا يعجز أصحاب أي قضية عن إيجاد أسباب للصراع والمناكفة بعد الركون إلى وجود المظلومية. وإذا شئت تتبّع مسارات اللوحة الكاملة ههنا، لن تجد جيوباً فارغة لدى أي من سكان المنطقة، فكل فئة لديها ما تُبرزه في وجوه الآخرين، ولديها أحجار تستطيع رَميها على زجاج بيوتهم. لكن من الصعب جداً تخيّل أن الحياة بين الجميع كانت وستستمر هكذا.

في قسم اللغة العربية بجامعة دمشق، كان على الطالب أن يختار لغة شرقية واحدة للدراسة بالإضافة إلى مُقرّر اللغة الأجنبية، من بين العبرية والسريانية والآرامية، وكان التوجّه العام يفترض أن الطالب سيكون بحاجة لدراسة المؤثرات اللغوية الآتية من اللغات الشرقية القديمة، أو تلك التي تنتمي لعائلة اللغات السامية. أي أن هناك إقراراً بأن اللغة التي نشأ القسم من أجل دراستها ودراسة آدابها، استقت بعض مكوناتها من السريانية.

وكما هو الحال في الدرس العلمي، تتيح الحياة اليومية للسوريين، وبعيداً من النبض الطائفي الذي كرسه الاستبداد الأسدي، أن يطّلعوا على السطور المخفية من حيوات بعضهم، فهم جميعاً شركاء في الأرض،



تقرأ مثل هذا الانتحاء في بعض الصفحات السريانية، التي يذهب ناشطون فيها نحو الحديث عن العرب المحتلين للأرض، ويُخرجون من الكيس ربطاً غير مسؤول بين الإسلام وبين العروبة، فتصبح مجازر "سيفو" المُركبة بحق السريان في بدايات القرن العشرين، وشكّلت جرحاً نازفاً في ذاكرة الطائفة، مبرراً لاستعداء الآخرين الذين لم يسمعوا أصلاً بما جرى في العام 1915، ولا يعرفون مَن هم القتلة ومَن هم الضحايا. حتى المسيحيين لا ينجون من اتهاممهم بالمساهمة في تهميش الأمة السريانية حين تبنّوا مفاهيم القومية العربية.

في دمشق المتعددة، لا يمكنك أن تعبر المسار الثقافي للمدينة من دون أن تتوقف عند الكنائس والمدارس السريانية، وفي حلب وحمص وغالبية المدن السورية، ثمة رسوخ هائل للغة السريانية، وفي الوقت نفسه ثمة جهود هائلة من أجل إحيائها لتكون حاضرة خارج الإطار الكنسي بوصفها لغة يتحدث بها جزء من مسيحيي سوريا، وخارج الأوراق العلمية بوصفها لغة مشرقية قديمة. غير أنه من الصعوبة تخيل أن الحال الذي انتهت إليه هذه اللغة تسبب فيها العرب، أو أن هناك مساعي معاكسة تريد لهذا الإرث الثقافي أن يندثر!

نعم، لدى السريان ذاكرة جريحة متقدة، تختلط في صورها مشاهد الاحتراق والدماء، حين تتبعثر الأمة ويتآكل وجودها بعد مجازر مهولة في شتات كارثي، فتتمزق هويتها وتكاد تضيع ثقافتها ولغتها. لكن هذا لا يؤدي في المسار العادي إلى اعتبار العروبة أيديولوجيا، بدلاً من هوية بشرية، كَون أن البعثيين أرادوا في وقت ما صباغة وجه سوريا بهذا اللون، كما لا يمكن اعتبار الإسلام سبباً للجور طالما كان عنواناً لتيار الإسلام السياسي.

من المفهوم أن سلوك الجماعة ذات الوجود المهدَّد، والتي تشعر بأنها تُطرَد من الجغرافيا واللغة والذاكرة، يدفعها إلى بناء خطاب دفاعي عن الذات. لكن هذا الدفاع لا يجب أن ينزلق إلى هجاء الآخر، خصوصاً إذا بدا هذا الآخر غافلاً أو متغطرساً. فيقوم بعض السريان بالتعبير عن هذه المرارة بنبرة هجومية، تُحمّل "العرب" كل خطايا التاريخ، من الماضي إلى الحاضر، ويتطور الأمر عند فئات جاهلة، من خطاب مشروع ينتقد سياسات التهميش، إلى شكل من العنصرية المضادة التي لا تقل خطورة.



لا خلاص للمشرق من دون اعتراف متبادل بين مكوناته. والعروبة ليست عدوة أحد، بل هي وعاء ثقافي مشترك يجب الإقرار بالتعددية في مبناها، لا يجب أن يوجهها المتعصبون نحو أهدافهم. والسريان، بما يمثلونه من عمق تاريخي ولغوي وروحي، ليسوا غرباء عن هذه الأرض، بل من صُلبها.

ما نحتاجه اليوم هو تجاوز التعميمات، ليس فقط في خُطب المنابر والصفحات السريانية في السوشال ميديا، بل أيضاً في الردود العربية. وأن نرى بعضنا خارج صورة "الضحية" و"الجلاد"، وأن نعيد كتابة سرديتنا المشتركة بلغة الاعتراف لا الإقصاء.

حجم الخط

مشاركة عبر

التعليقات

التعليقات المنشورة تعبر عن آراء أصحابها

الكاتب

علي سفر

كاتب سوري مقيم في فرنسا

مقالات أخرى للكاتب

بين الأمل واليأس...المثقفون السوريون في مواجهة فراغ المرحلة الانتقالية

الجمعة 2025/06/20



جعفر بناهي الذهبي: مثقف العدالة الانتقالية

الثلاثاء 2025/05/27

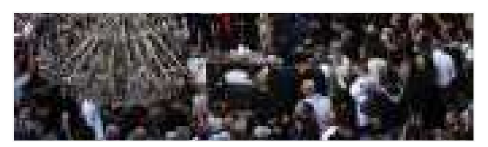
الصحافة الثقافية في سوريا: أنفاس جديدة

الخميس 2025/05/15

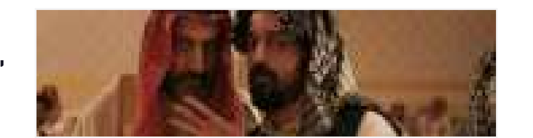
عرض المزيد

الأكثر قراءة





قراءة هادئة في خطاب البطريرك



"صيفي": سعودية الكاسيت



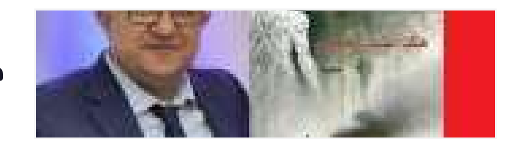
بعلبك 1959: مهرجان وسياسة... وحشيش (2)



معرض ميسم الهندي: شهادة من أهل هذا البيت



الحسام محيي الدين يقرأ نقمة عصام محفوظ ولغته ...



هيثم حسين يفتح أرشيف جسده في سيرة مؤلمة


جريدة إلكترونية مستقلة


جريدة إلكترونية مستقلة


جريدة إلكترونية مستقلة


جريدة إلكترونية مستقلة





